المصـــدر : الشرق الاوسط
التـــاريخ : 20-12-2006
الصفحـات : 17
العـــدد : 10249
المسلسل : 83

الشرق الأوسط على برميل بارود

كنت في مدينة الكويت وسط جمع من الخبراء في شؤون الشرق الأوسط عندما وصف خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله، خلال قمة مجلس التعاون الخليجي الحالة في المنطقة بأنها مثل برميل البارود. والوصف يعبر عن حالة قابلة للانفجار نتيجة التفاعلات الداخلية في داخل البرميل حيث ترتفع درجة الحرارة إلى درجة تكفي تفاعلاتها السريعة للانطلاق من عقالها بعد أن حبا ما كان بجعلها ساكنة؛ أو نتيجة فعل فاعل يصل البرميل بالمفجر ويضغط على زر الانطلاق فتحدث الشرارة التي تشعل الفتيل الذي يفجر الموقف.

وفي الشرق الأوسط توجد كلا الحالتين، فالتفاعلات في المنطقة تنشط بسرعة، كما أن هناك كثرة فيمن يريدون إشعالها، فتأثيرات العولمة وثورة الاتصالات وانهيار الاتحاد السوفيتي من قبل ومنجزات التنمية المتراكمة خلال العقود الماضية قد نشطت من حركة البشر، وعقدت أحلامهم وتوقعاتهم، وخلقت حالة من الانقلاب الاقتصادي والاجتماعي، وكانت النتيجة هي انخفاض كبير في درجة الرضا والقبول بأوضاع الدولة والمجتمع في حالتها الراهنة.

وفي الأحوال التاريخية العادية فإن مثل هذه التطورات تنتهي في النهاية بإعادة ترتيب الأحوال السياسية لكي تستوعب الجديد أو لكي تخفض درجة حرارة البارود في البرميل فلا يصل إلى لحظة الانفجار أبدا، ولكن منطقتنا ليست معروفة بالقدرة على إنتاج «أحوال تاريخية عادية» فقد فرضت على نفسها وفرض عليها أيضا حالة «استثنائية» تجعلها «خاصة» ومختلفة وقابلة للاشتعال في أي وقت. وخلال الأسابيع الماضية حبس كثير من العرب أنفاسهم انتظارا لما سوف تسفر عنه الأوضاع في لبنان بعد أن أشعل حزب الله الفتيل في الشارع اللبناني لكي يهز سلطة الدولة ويستعرض عضلات إيران. وحتى وقت كتابة المقال كانت الأنفاس لا تزال محبوسة، بينما لا تملك القلوب إلا الدعاء من أجل نجاح مجهودات الوساطة لمنع نار الفتيل المشتعل من الوصول إلى البرميل الجاهز للانفجار.

ولكن المسارح الاستراتيجية الكبرى لا تعطي نفسها لما تملكه القلوب وإنما لأصحاب الحكمة الذين يعرفون أنه ما لم يتم تبريد البرميل القابل للانفجار، وعزل الفتيل والنار بعيدا عنه، فإن النتيجة معروفة حيث الانفجار والأشلاء والضحايا، وفوق ذلك كله عجز كامل عن إدارة الحاضر والمستقبل.

وربما كان ذلك هو قضية القضايا من الأصل، فليس سرا على أحد أن المنطقة كان بها دوما تناقضات وصراعات، وفي واحدة منها - العرب وإسرائيل - اقترب الصراع من ستة عقود، وفي واحدة أخرى - السودان - خمسة، وفي ثالثة - لبنان - قرابة أربعين عاما أو أكثر، وهكذا في أزمات وصراعات أخرى. ولكن كل ذلك كان يمر بفترات من الاشتعال وتسارع التفاعلات ثم تعقبها فترات من الجمود والروتين ودرجة من الاعتياد، ومن يعرف فربما تنشب أزمة أخرى في العالم تجعل أزمة «الشرق الأوسط» تختفي من على شاشات التسخين الدولية. وخلال عقود السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي شهدت المنطقة فترة من الاستقرار النسبي لم تتيسر لها منذ فترة طويلة، وانتهت ظاهرة الانقلابات العسكرية والتغييرات «التصحيحية» وبقي على رأس السلطة في بعض الأحيان نفس الشخصية لفترة طويلة.

ولكن لأن فترة الاستقرار لم يحسن استخدامها، ولأن دوام الحال من المحال، ولأن الثروة النفطية جاءت ومضت بعد أن حسنت من الأوضاع المادية ولكنها فشلت في تطوير العقول، ولأن عملية السلام العربية - الإسرائيلية أتت وذهبت كما تأتي وتذهب كل الفرص الضائعة؛ فقد دخلت المنطقة القرن الجديد وكافة تفاعلاتها الأساسية ترتفع حرارتها بطريقة منذرة. وربما لم تكن هناك صدفة أن تنشب الانتفاضة الفلسطينية الثانية في عام 2000، أو أن تجري أحداث سبتمبر في عام 2001، ومن بعدها صار لكل عام حرب، ولكل شهر أزمة، ومع كل يوم مصيبة بشكل أو بآخر. وإذا نظرت إلى هذه الأزمات والصراعات مجتمعة فسوف تجد فيها خطا واحدا أصوليا متطرفا متعجرفا لا يحترم الدولة ولا يعرف إلا أشكالا مختلفة من العنف، وإذا استخدم الدبلوماسية فهي فقط لكسب الوقت، وتعبئة الناس نحو الموت وليس الحياة.

ثمة أهمية للضرورات الاستراتيجية التي تحتم بناء أكبر مساحة من التحالف بين الذين يريدون عزل برميل البارود وتبريده والذين يريدون تفجيره

وفي مثل هذه الحالة من براميل البارود الساخنة والجاهزة للانفجار من داخلها، أو بفعل فاعل، فإن الحل هو تبريدها وعزلها ونزع الفتائل منها، وكذلك خلق مسافة

المصـــــدر : الشرق الاوسط
التـــاريخ : 20-12-2006 العـــدد : 10249
الصفحـات : 17 المسلسل : 83

عبد المنعم سعيد

كافية بينها وبين الساعين إلى تفجيرها. وربما تكون الخطوة الأولى في التعامل معها هي وقف إضافة عناصر جديدة ـ متفجرة أيضا؛ ـ إلى البرميل الذي يوجد فيه ما يكفيه من عناصر الانفجار. ومن هذه العناصر الجديدة ذلك التقسيم ما بين السنة والشيعة والذي تدفع به عناصر مختلفة لكي تصب زيتا على نار مشتعلة. ولا أريد هنا أن أدخل في عناصر الأخوة بين الجماعتين، ولا أريد أن أخوض في ضرورات الوحدة الوطنية داخل كثير من البلدان العربية، ولكن ما لا يقل أهمية عن هذا وذاك هو الضرورات الاستراتيجية التي تحتم بناء أكبر مساحة من التحالف بين هؤلاء الذين يريدون عزل برميل البارود وتبريده، وهؤلاء الذين يريدون تفجيره.

فالحقيقة أن المواجهة في المنطقة ليست بين الشيعة والسنة حتى ولو كانت الأصابع الإيرانية ملتهبة بآثار البارود، أو كان حزب الله في لبنان متلبسا بحسابات خاطئة ومدمرة طوال الوقت؛ لأن جماعة حماس السنية هدت مشروع الدولة الفلسطينية من أساسه، وحركة الإخوان المسلمين ـ السنية أيضا ـ توزع ملثموها على ساحة واسعة من الأقطار العربية والإسلامية حتى وصلت مؤخرا إلى القاهرة حيث الدولة المصرية العتيدة. وسواء نظرت إلى الصومال أو السودان أو العراق فسوف تجد البصمات والعلامات لقوى متطرفة متنوعة لا تعرف من بينها السنة أو الشيعة؛ ورغم تناقضات مذهبية كثيرة فإن اللقاء والتحالف الاستراتيجي بين قوى التطرف له الأسبقية على كل ما عداه.

هذا التعريف الدقيق للموقف، أو بالأحرى موضع وموقع برميل البارود، هو الخطوة الأولى في اتجاه منع البرميل من الانفجار. وفي ظني أن الخطوة الثانية والأساسية تتعلق كلها بشرعية الدولة العربية المعاصرة. وعندما كانت منظمة حماس تقوض بالاشتراك مع إسرائيل السلطة الوطنية الفلسطينية كان الظن أنها حالة خاصة بدولة لم يكتمل وجودها من الأصل، ولكن عندما بقيت مليشيات حزب الله مسلحة بعد اتفاق الطائف فقد كان ذلك تقويضا لدولة لبنان لم تكن قوة النظام السياسي من أهم علاماتها. ولا تكاد تجد بلدا عربيا واحدا إلا وحاولت فيه القوى الأصولية المتعددة الألوان أن تقوض شرعية الدولة باسم الديمقراطية تارة، وباسم الإسلام تارة ثانية، وبالعنف والابتزاز في كل الأحوال. وفي عام 1648 جرى في أوروبا ما عرف بصلح «ويستفاليا» الذي اعترف بالدولة «القومية» ـ أي التي تقوم على المواطنة وليس الدين وبالتأكيد المذهب الديني ـ أما في عام 1974 فقد اتفقت في هلسنكي الدول الأوروبية والقوى العظمى على احترام الحدود القائمة الناجمة عن الحرب العالمية الثانية.

وربما كان ذلك ما تحتاجه في الشرق الأوسط صلح وستفاليا مع اتفاقية هلسنكي، فلا يجب أن يعتقد أحد في العراق أن بقدرته تقسيم الدولة العراقية، ولا يجب أن تعتقد قوة في لبنان أنها قادرة على تدمير الدولة. إنها شرعية النظام الإقليمي القادر على تبريد برميل البارود وقطع يد من يريد إشعاله!